

منهج نقد الرواية الشفوية عند بلاشير

The method of criticizing the Oral Novel by Blasher

كريم بن سعيد *

جامعة الدكتور مولاي طاهر سعيدة / الجزائر

Bdr309985@gmail.com

ملخص البحث

ريجى بلاشير Régis Blachère (1318 - 1393 هـ / 1900 - 1973

م (هو مستشرق فرنسي، ولد في مدينة مونترج يوم 30 يوليو 1900 والمتوفي في مدينة باريس يوم 7 أغسطس 1973، معروف بإطلاعه العميق على اللغة العربية و الأدب .

إن هدف الدراسة، هو الرد على بلاشير في أن ظاهرة الانتحال ظاهرة سبق إليها النقاد العرب.

استند بلاشير في تمرير فكرة العجز عن فرز الأصل من الدّخيل يخلص بلاشير إلى إبداء رأي بشأن ظاهرة الانتحال ومقارنتها بحجم الصّحة في الموروث الشعري ما قبل الإسلام، فعند إجراء هذه المقارنة، بيّن أنّ الموروث الشعري وشقيقه الأموي يهتدي إلى التتابع الخطّي والزّمني الذي لا يتيح أسباب الفصل بينهما. إلى فكرة النّقاد العرب القدامى وتحديدًا المفضلّ الضّبي وموقفهم من حمّاد الرّواية الذي يتحمّل تبعات ما لحق بالشعر العربي من نحل.

وعموما نجد أن المستشرق الفرنسي بلاشير لم يؤسّس لنفسه عقيدة ترسّخ فلسفته الاستشراقية كنموذج بقدر ما جاء يعرض رؤى غيره من المستشرقين متوقّفا عند هذه الحدود التي لا تفسح المجال للإضافة الكلمات المفتاحية: منهج ، الرواية ، الشفوية ، الشعر ، الجاهلي ، بلاشير.

* دكتور بن سعيد كريم .البريد: Bdr309985@gmail.com

Abstract

Rigs Blasher (1318-1393 / (1900-1973 A.D , he was French Orientalist, was born on 30 July and was died on 7 August 1973 in Paris city. He was known by his depth insight on literature and Arabic language.

The present study aims to respond Blasher on the idea that plagiarism phenomenon was already studied by the Arab critics.

Blasher was relied on passing the idea of the deficit split or choose between the original and the fake one. Blasher concludes his view by proposing an opinion that concerned plagiarism phenomenon and comparing it to the size or the degree of reality in the pre-Islamic poetic heritage. In doing this comparison, he illustrated that the poetic heritage and his Ummayyad brother denotes to a linear and a temporal sequence that do not allow the reasons for the split.

Moving to the old Arab critics idea specifically Dhabi and their positions on Hammad al-Rawya who bears the results of the subsequents Arab poetry from the fake.

In general, we find that the French Orientalist Blasher did not establish for himself a doctrine that entrenched his Orientalist philosophy as a model as it came to present the views of other Orientalists stopping at these limits that do not give way to add.

Key words: Curriculum, roman, oral, poésie, ignorant, Blasheer.

1. مقدمة :

إن المستشرقين الذين تناولوا بالدراسة الموروث اللغوي والأدبي بعامة، والرواية الشفوية لشعر ما قبل الإسلام، فجاءت آراؤهم تتم عن معتقد راسخ في الذهنية الاستشراقية إزاء حضارة الشرق لتخريج قد يبدو لهم طبعيا، وهو ما فسر بعض منه في الشك في الموروث الحضاري الذي يمثل فيه الشعر إحدى دعاماته وهو ما يطرح الإشكالية الآتية: ما مدى صحة الرواية الشفوية في تدوين الشعر الجاهلي؟، إشكالية سعى المستشرقون ومنهم، المستشرق الفرنسي، ريجس بلاشير، انطلاقا من فرضيات، كان الشك فيها منطلقا ومنتهى، إلّا في القليل منها الذي جاء يحمل بعض الاستثناء...، وهو الأمر الذي دفع بي إلى محاولة الإجابة عن هذه الفرضيات باخرى تعتمد الاستقراء والتحري منها لرد كثير الرؤى التي نأت بنفسها عمدا عن الطرح الموضوعي الذي يأخذ بأسباب مساحة الإيجاب والسلب من مساحة متساوية مع تغليب الجانب المقنع الذي تركز إليه دراسة تهتم بفضاء شعر ما قبل الإسلام وهو الذي يعد مجالا خصبا غدى المخيال العربي وأسس للقصيدة الكلاسيكية ونمطتها منهجه لازال راسخا في الثقافة الأدبية واللغوية لما حفره في الذاكرة الجمعية للموروث الشعري .

من حيز هام وجدانيا يأخذ فجاءت أطروحاتهم تتعدد وتتباين بتعدد وتباين رؤى أصحابها لاختلاف مشاربهم، فكان من ذلك ما احتلته الرواية الشفوية من نقود، فجاء جزء منها موضوعيا أثرى الدراسة وسلط عليها أضواء أنارت كثيرا من المساحات التي ظلت إلى وقت قريب يخيم عليها الظلام وتغشوها الضبابية، فعدت إضافة نوعية في القراءة الغيرية للموروث الشعري العربي من حيث، ما هو منهج وما هو مضمون لاينكرها إلا جاحد !، إلا أنه وفي الوقت نفسه طالعنا رؤى تختلف تصورا عن سابقتها، فالشك يلزم الرواية من مبتدئه إلى منتهاه دون الوقوف على إنشاء استثناءات تطبع الدراسة الموضوعية بالطابع العلمي .

2. آراء بلاشير:

من الذين خاضوا بحثاً في مجال الرواية الشفوية كمصدر من مصادر الشعر الجاهلي، الباحث المستشرق بلاشير. فهو يرى أنّ الشعر الجاهلي، عرف سبيله إلى الخطية بعدما مرّ بفترة شفوي رواية الشعر الجاهلي لازمته مدّة طويلة، من الزمن، فهو يقول في ذلك: "لقد اكتسب الشعر الجاهلي و معطيات التاريخ و الأخبار المتصلة في صفة الكتابة في تنقل شفوي طويل الأمد تراه هنا يقف على تخوم الشفهية كخاصية من الخصائص التي تطبع الشعر القديم بطابعها، و في وقت متأخر لها خاصية الكتابة. كان سنة 30 هـ 850 م، أين عرف الشعر ذلك الذيع و الصيت في الوسط القبلي العربي في شكل عام بشقيه البدوي و الحضري، إلّا أنّ بعض الأشعار لم يكتب لها هذا الرواج كونها لم تتعد حدود القبيلة الواحدة.

2-1 الرواية الشفوية مصدر تدوين.

فالرواية الشفوية كوسيلة تناقل الأشعار، جاءت تخضع لعناصر تختلف كالفجائية و الصدفة و تقلبات الهوى يسيّرهما في كلّ ذلك، تغير مجرى الأحداث القبلية. فعدم وضوح المقصد قد يكون وراء جمع الآثار الشعرية، إلّا أنّه لا يمكن لنا الفصل في ذلك، و بحثاً عن الخيوط الأولية الموصلة إلى التدوين، وجب تفقي آثار البدويين و التفقيش عن أسباب أخرى يكون تأثيرها أقوى حدّة. مما فات اهتمامنا إلى منهجية التدوين.

إنّ تأثير هذه الأسباب، قد يكون جانبياً عند التعمق في البحث، و مما نحسبه جاء عرضياً بناء الدولة في محطّاته الإدارية، للاستفادة من ريع توزيع الغنائم، و ما يعطى، للجند و تلمس مواطن البدو في جغرافيا الحاضرة، كان ذلك أحد الدوافع لإبلاء الأنساب ما تستحق من إبلاء إنّ هذا الشكل من التحريّ لقي صدى في الأرض العربية لا يزيد عليه غيره فيه » و قد عرف هذا النوع من البحث في الجزيرة العربية رواجاً لا مزيد عليه حيث صار علم النسب من التوثيق التاريخي الذي يشكّل لحمة المجتمع

الجاهلي، فأصبح النص الشعري يمثل متن علم النسابة، الذي أصبح يتخذ البيت الشعري أو المقطوعة الشعرية خدمة الغرض المتقدم، الذي كان من الأمارات التي تفضي إلى إنشاء الأحلاف القبلية، على ألا يفهم مما تقدم أن علم النسابة كان يلجأ إلى المكتوب في جميع أحواله، بل الأهم منه إسهامه في توسيع دائرة التقصي لدى من اهتموا بهذا العلم، ونقصد الحجم الشعري الذي تم جمعه استناداً إلى ما حفظته الذاكرة الشفوية.

2-2 حركية التدوين ومنهج الشك .

فالتأريخ لحركة الخلافات السياسية، بدأ مع تولي الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - سنة 35 هـ/65م، إن المعارك التي دارت بين اليمينيين و المصريين ، وقت الخلافة الأموية، تكون قد عجلت باللجوء إلى المصادر المتنوعة في جمع الشعر العربي ، مما يذكي لهيب غرض الهجاء الذي يكون الشعر إحدى مرجعياته، فيكون الاهتمام بجمع هذه الأشعار أسهم بقسط أوفر في الحفاظ على الموروث الشعري الجاهلي. و من الدواعي العابرة الأخرى زيادة على ما تقدم، هو الفضول في كنه الماضي فالتأريخ لشبه الجزيرة العربية، يبقى يحتفظ لنفسه بالحدث الخطير، والذي يتجلى في بزوغ الإسلام، فعند الإتيان على ذكر شمائل العرب المطبوعة كالكرم، و ملحمة النبي محمد - صلى الله عليه و سلم - و غزوة المشركين، و كذا ضروب المروءة التي اشتهر بها المسلمون - بعضهم - عند الفتوحات، و بالعودة إلى فحوى الشعر نقراً لا نظام الذي ميّز حياة العرب الطويلة.

إن الحركة المنتظمة لجمع الشعر العربي الجاهلي، يعود فيها الفضل إلى معاوية بن أبي سفيان، عندما أمر عبيد بن شريّة الجرهمي القادم عليه من اليمن و استفساره إياه عن أحوال ملوك العرب و العجم، و الدواعي المؤدية إلى لكنة الألسنة، و ما اختلف فيه الناس، فأمر معاوية بالكتابة، و يبقى من المشقة بمكان التصديق بهذه الرواية لانعدام القرائن التي تدعمها في موروث عبيد بن شريّة¹.

فإن ما قام به معاوية، لا يخرج عن النطاق العام لانشغالات عصره، أسهم ظهور الإسلام في الحفاظ على الذاكرة الشعرية، و ذلك بحفظ شعر من أسلموا، كحسان بن ثابت، فبرغم تعدد المقاصد التي ساققتها العوارض في صون مآثور الشعر من الزوال، تبقى تكشف عنه وجدان أدبي أثناء عملية جمع الشعر، فعند توظيف غرض شعر الهجاء ينتقى فيه ما يتوافر عن الصنعة الفنية، فالأخذ بفكرة المعيار الذوقي الذاتي، ظل واردا يواكب حركية المجتمع": و يبدو أثناء الجمع، شيء من التفضيل الذوقي الذاتي².

فالشاعر يقول عند تعداد المناقب على الشعر الرصين الذي يخدم قصيدته، فهو يسقط من تعاملاته حلقات الشعر الضعيف. و يبقى في الأخير افتخار القبيلة بما تفرزه من فحولة شعرية تمجد شرف القبيلة كله يدفع ذلك بهذه القبيلة إلى حفظ شعره الأمر الذي ما يفسر الترسخ التدريجي بعد شيوع ظاهرة الكتابة عدم اللجوء إلى اعتماد الرواية الشفوية، كمصدر من مصادر تناقل الموروث الشعري فبالأخذ بالمعطى الذي يرجع في شيء من القرن الثالث الهجري إلى التاسع الميلادي يتضح منه أن ظاهرة تدوين الشعر موغلة في القدم في الوسط العربي.

فعن رواية حماد: ملك الحيرة النعمان بن المنذر، أمر بنسخ أشعار العرب في الطنوج الكراريس(، ليقوم بدفنها في قصره الأبيض، ففي عهد المختار بن أبي عبيد الثقفي أومئ إليه بوجود كنز مدفون تحت القصر، و عند الحفر قام باكتشاف ذلك الكنز من الشعر فمن ذلك الزمان كتب، نعترف لأهل الكوفة بباعهم الشعري تفضيلا لهم عن أهل البصرة يستقى من هذا الصنيع مثل هذه الرواية لإظهار ما لأهل الكوفة من سبق شعري على أهل البصرة تغذية للصراعات التي تأججت بينهما، و من زاوية أخرى يجعلنا نقف على مواطن المشقة التي واجهتها عملية التدوين في مهد البيئة العربية في القرن السابع الميلادي، و دليلنا في ذلك النص القرآني الذي لم يعرف طريقه إلى الكتابة إلا بعد ممات الرسول - صلى الله عليه و سلم-، و كذلك بعد أخذ و رد انتابت هذه العملية. هو

شأن تعلق بالنص المقدس، فبالمقابلة نجد النص الشعري أقل شأنًا لما يحمله من إسفاف مضاميني، و هو ما أخر عملية التقيد تعظيمًا للكلام السماوي، و هو ما يدعم فرضية ترسيخ فعل الكتابة، كفكرة بدأت أولًا تجد مستقرًا لها في الأذهان مع مرور الوقت . و كانت البدايات من دون أدنى شك من حواضر كل من ؛ البصرة و الكوفة و المدينة و دمشق فجاءت المحاولات مهزوزة تصبح إزاء فعل الكتابة في الربع الأخير من القرن الثامن الميلادي و ما تلاه . فعند بلوغنا مرحلة الشاعر عمر بن أبي ربيعة، و باستقراء نصوصه الشعرية اهتدينا إلى توظيف ظاهرة المكتوب في تواتر الرواية الشعرية، حتى صار هذا الصنيع حدثًا متصلاً، و بتقّي آثار ممن سبقوا و بفعل المحاكاة أقحمت الكتابة في ترسيخ النقول الشعرية الشفوية السابقة . و هناك دليل آخر يظهر فيما احتفظت به إحدى المغنيات بآثار شعرية ل : عمر بن أبي ربيعة بعد وفاته، أعدت للتغني بها، ثم في خلافة الوليد بن عبد الملك، قام الخطاط بن أبي الهياج بكتابة المصاحف و الشعر و الأخبار للخليفة المتقدم، ما يفضي بنا إلى الاطمئنان إلى الرواية التي نقلت امتلاك الفرزدق) بعد 106هـ/724م(، ديوان شعر زهير بن أبي سلمى³. هناك خبر آخر يعزّز فكرة سابقة، و هو أمر الخليفة الوليد بن يزيد(90) هـ/127م(، يجمع ديوان العرب من : شعر و خبر و نسب و لغة . مع ما يتناهى إلى علمنا بثبوت مجتمعات القبائل و إن جهل رواتها، تبقى من الآثار الجمعية بها شواهد شعرية، مع الشك في وضعها، مع الاعتراف بمحدودية المعلومات و ضيق أفقها و عدم دقتها في ملامسة حدود دائرة التدوين وبالتخمين، يبدو أنه كان متجزئاً خاضعاً لإملاءات الذوق الفردي و الحاجة الدينية و اللون السياسي لتبقى هذه الأذواق واهية في صون الموروث الشعري من الفناء⁴.

كما أنّ منهجية الكتابة الموظفة بدت ضعيفة برغم الإصلاح الذي طالها كتتقيط الحروف و الإعجام، في عهد الخليفة الأموي، الوليد بن عبد الملك بن مروان، و كان

ذلك كافيا لإقرار قواعد اللغة الدارجة، ... "و هي مع ذلك كافية ما دام المقصود بتثبيت اللغة الدارجة⁵."

إلا أن ذلك لا يعني صعوبة النص، فالكتابة تقف عاجزة لفك شيفرات النص الغامض و فتح قراءة النص الشعري قراءة سليمة، كما هو عليه الشأن في النص القرآني يكمن في الاستنجا بالاستظهار الدقيق، مع الترجيح في تواجد حجم كبير من الشعر على اختلاف أنواعه، بقيت ذاكرة الرواة تسعه، ومنه ظل الشعر الجاهلي إلى وقت اتصالنا به حبيس الرواية الشفوية، مما جعله عرضة لعاديات الزمان .

2- 3جيل الرواة.

إن افتتاح جيل من الرواة ميدان الرواية التي جاءت تختلف عن رواة القبائل، الأبرز خطرا يهدد عملية التدوين، كان ذلك سنة 742 م بأمصار مكة و المدينة، يضاف إليها دمشق كذلك، و كان أهل الكوفة و البصرة يميزونهم من الرواية، و ذلك لتضلّعهم في عام الرواية، و استمرت احترافيتهم خمسين سنة أو أزيد، و من أعـلامهم، خلف الأحمر المتوفى سنة 180 هـ / 796 م، و يتحدثون كلّهم في أنّهم إلى الحواضر ينتمون، و كان من هؤلاء من إلى العرب ترجع جذوره، نحو (:الكلبي و دعوانة)، كما نجد أنّ منهم من تعود أصوله إلى الموالي، الذي يصعب معه تحديد أصوله، من أصل فارسي في جل الأحوال يتبنّى في عوائل محمودة تقطن حواضر العراق أو الحجاز، كما هو عليه الحال عند حماد الرواية و خلف الأحمر، و ممّا ميّز هؤلاء الرواة خبرتهم بالحياة البدوية و أحيانا أخرى إقامتهم فيها بحسب ما يمليه الظرف، مما رشّحهم لإتقان اللغة العربية، مع اطلاع كبير على الحياة الميثولوجية ، يشترك فيهم بامتلاكهم ذاكرة حادة، تكون دائرة الرواية الشفوية قد سعت جهود هؤلاء الرواة الذاكراتية، فمع أنّهم، أي الرواة ظلّوا قائمين في حواضرهم.

إلا أنّ وصالهم القبلي بقي ممتدّا خارج حدود القبيلة الواحدة، و هو ما نتج عنه امتداد نطاق الرواية الشفوية إلى أبعد مداه، و كان المرمى الروائي، ما فرض نفسه من شعر ذي قيمة فنية، فيطير به الصيّت ليلقى ذلك الرّواج الواسع .فحمّاد الرواية -كما يبدو -الرائد في صنع المجموعات الشعريّة التي نعرفها من العوامل التي تدفعنا - و بقوة - إلى التشكيك في صنيعهم، و إن كانت أساليبهم معلومة عندنا، و إن ما جاء محفوظا عن الكلبى و عوانة، و حتى المفضلّ الضّبيّ، و هو ما يميزهم من الآخرين، لما تحلّوا به من جدية، فمناهلهم التي وردوا منها، كانت عناوين مجهولة، و ما يغدّي هذه الفرضية، هو انعدام النقد الأولي الذي يصاحب عملية جمع الشعر الجاهلي .علما و أنّ في تضاعيف عناصر التّاريخ و التّراجم مواد أسطورية محض، كما في النّنف الشعبيّة مما يوحي بعدم الاستقرار⁶.

و ترى حمّاد لا يبرح السجن إلاّ بتدخّل ذوي الشّأن جزاء مدحه لهم .كانوا يتعاطون أغراضا شتى، كالهجاء و الغزل، كما كانوا يميلون في بعض الفترات إلى الشّاعرية الرّقيقة البسيطة .و لما تقدّم السن بحماد و بلغ من العمر عتيا، ساءت أحواله الاجتماعيّة و تدهورت، ولم تكن عناية العباسين به كما كانت عليه عند الأمويين، إلى أنّ مات منسيا .كان ذلك حوالي عام 156 هـ /772م⁷. جاء خلف الأحمر من بعده ليسير على الدّرب ذاته، و لد خلف الأحمر سنة 115 هـ /733م، و أصل أهله من فرغانة جيئ بهم أسرى إلى البصرة، و ذاق خلف طعم الشّقاء في طفولته، و ظلّ بعد عتقه منتسبا بالولاء لأبي برنة بن أبي موسى الأشعري .و آل بردة، إليهم ينتسب بلال، حاكم البصرة، فمن عرفوا بعطفهم على حمّاد، و يبدو من طفولة خلف كانت في الوسط العليّ للبصرة، ترعرع خلف في البصرة في وسط علمي " :من أساتذته :عيسى بن عمر النحوي المتوفّى، حوالي 149 هـ /766م، و أبو عمرو بن العلاء . "ما يهمنّا من كلّ ذلك، هو الوقوف على أهم محطات حياة خلف الأحمر و

تعلّقه بشخصية حمّاد الرّواية في تقف لآثاره، كان هذا من الدّواعي التي أدّت به؛ أي خلف إلى الاعتكاف على جمع آثاره رغم الشكّ الذي ساوره إزاءها كموروث شفوي . فكان أن حصل إجماع كل من، أهل الكوفة أو البصرة على حد السّواء على المعرفة الصحيحة لخلف بالشّعّر الجاهلي، مع ما له من موهبة و فطنة رشحاته لفرز صحيح الشّعّر من زائفه .

3. نقد منهج الرواية الشفوية عند بلاشير .

1-3 نقد منهج بلاشير .

إنّ المذهب الذي ذهب إليه بلاشير، من أنّ الشّفويّة كرواية لازمت الشّعّر الجاهلي ردها من الزّمن، مذهب له جانبه الصّحي، فكثيرة هي الأطروحات التي ذهبت المذهب نفسه، فمن بينهم، الغدامي الذي نقل عنه " :ظلّت رواية الشّعّر الجاهلي شفويّة بالفعل و الاصطلاح على مدى زمن طويل مستمرّ حتّى بعد أن تمّ التّدوين؛ لأنّه كان تسجيلًا خطيًا للرواية الشّفويّة وأنها سمة للرواية و ليست للإبداع!

فالغدامي يتبنّى الطّرح نفسه عند بلاشير، فكلا الرّجلين، يريان أنّ الرواية الشّفوية، هي السّائدة، و التي إليها استند الموروث الشّعري مدّة من الزّمن توصف بالطّول، حتّى أنّها كانت مصدرا أوليا عليه اعتمدت الرواية المكتوبة عصر التّدوين . و نجد كلّ من، جيمس مونرو و مايكل رويتلر، ينظران إلى الشّعّر كموروث شعبي يمكن إخضاعه لنتائج البحث العلمي، " :و أهمّها اعتماد الشّعّر الجاهلي على الرواية الشّفوية، و استخدامه الإنشاء، و النّتيجة لا نصّ ثابت و لا شاعر معروف . "و في هذا يتدخّل المستشرقان بمحاولتهما تطبيق المناهج ليكون ميدانها لها الشّعّر الجاهلي ذلك بتطبيق نظريّة البحث العلمي على التّراث الشّعبي . فبرغم وعي الدارسين الذين تخصّصوا لتطبيق المناهج الشّفوية فإنّ الشّعّر الجاهلي المتعدّد الأغراض، إلّا أنّهم واصلوا نهجهم لتسويغات منها :

- قيام أداء الشعر الجاهلي حتى العصر الأموي على الشفوية، على غرار الآثار الشعرية العالمية الأخرى.
- انتشار الرواية الشفوية بين القبيلة و القصائد شاعرها، و منه شاع تقليد نص القصيدة.
- الوزن و القافية.
- نمطية اللغة.
- الخلو من التضمنين.
- الافتقار إلى الكتابة.

إنّ العرب لم تتوافر لديهم الشفاهية كخاصية ينفردون بها عن باقي أمم عصرهم، فلم يكونوا مبدعين في التداول الشفوي، فكثير من الأمم سبقتهم إليها ممارسة، فالحضارة اليونانية القديمة وحتى الحديثة والإنجليزية، والإسبانية و الفرنسية قديما، و حضارة الألمان في العصور المتوسطة، و الأمر نفسه بالنسبة للحضارة الإفريقية و الهندية، :لقد طبقت النظرية الشفاهية على تقاليد كثيرة منها :اليونانية القديمة و الانجليزية القديمة . . . و الفرنسية القديمة، و الألمانية الوسيطة . . .و تقاليد شفاهية إفريقية و هندية و أخرى و غيرها.

فلا ضير أنّ جزء من روايتنا، جاء يخضع لسلطان الرواية الشفوية، بحيث أنّ أمما سبقت العرب دخلت في تقاليد ترسيخ الشفاهية لتتأقلم الموروث الثقافي.

ليس يحقّ لنا من وجهة موضوعية، أن نبعد الشعر العربي القديم عن جانبه الشفوي، فهو - وبما يوسم به من خصوصية-، أعدّ للإنشاد، فجاء يعتمد هذا الأخير على الأداء السماعي التقليدي، إلّا أنّ هناك نظرة خاطئة، نادت بأنّ هذا النوع من الأداء كان بوزاع الشعر الارتجالي، فإن صحّ فليس يصحّ مع الموروث الشعري الجاهلي كلّ، لكن هناك من الشعر ما جاء يضع الاستثناء و مدرسة الصنعة كما -تقدم هذا -ولّت وجهها صوب

إعادة النظر و التّقيح و تقليب القصيدة و مراجعتها، ممّا جعله شعرا يتميّز من غيره و يأخذ مساراً خاصّاً به .فضلاً عمّا تقدّم، نجد عنصري الوزن و الجرس الموسيقي الدّاخلي للنّص الشعري، من العناصر التي أسهمت في تعزيز التداول الشّفوي، "إنّ الشّعْر الشّفوي الذي جاء . . . بطريقة بطيئة و مخطّط له بعناية، و غالباً ما كانت مضنيّة، هي -إن لم يكن من معذر -تمييزها، فإنّها إذن من الممكن مقارنتها تماماً على الأقلّ بالشّعْر المكتوب، وهو ما سبق أن أشرنا إليه، إلّا أنّ الإضافة التي جاء بها الشّاهد، هو إمكانية مقارنة مثل هذا النوع من الشّعْر بالأشعار المـدوّنة؛ لأنّه كيف يمكن لشعر شفويّ، إذا لم يرسّخ في الذاكرة كالأثر المكتوب أن يتيح مجال التّقيح ؟!

2- 3 خصوصية الشعر الجاهلي:

و منه نخلص إلى أنّ النّظرية الشّفوية التي جاء بها الغربيّون -بعضهم ومنهم المستشرقون- ، و التي حاولوا فيها تطبيق مناهجهم التي بها الكثير من الهنات؛ لأنّها لم تنطلق من خصوصيّة الشّعْر الجاهلي، و سبر أغوار لغته في نواحيها المتعدّدة و العميقة، فراحوا يتعسّفون في إقحام نظريّات علم الاجتماع في الموروث الشّعبي في تطبيقها كعنصر دخیل على الشّعْر الجاهلي، و في ذلك يقول شولر . . . " :إنّ نظريّة الرواية الشّفوية للشّعْر الجاهلي خاطئة تمام الخطأ؛ لأنّها لم تبال بالنّظر في كينونة هذا الشّعْر و اللّغة التي صيغت بها، بل أخذت نظريّات من ميدان علم الاجتماع و التّراث الشّعبي، و أخضعت القصيدة العربيّة لتلك الأقوال . و يبدو أنّ هذه النّظرية ستخدم كما خمدت نظريّة الانتحال و سيبقى الشّعْر الجاهلي مجالاً للدراسات النّقديّة و الفنّيّة. "

نفهم ممّا سبق أنّ للشّعْر العربي القديم عالمه الخاص به، و لفكّ شيفراته و جب التّعامل معه بما ينسجم و هذا العالم، الخارجيّ و الدّاخلي؛ و نقصد بالخارجيّ رواية الشّعْر التي كانت تعدّ القناة الواصلة، فعبر المسار الذي رسمته لنا، حدث الاتّصال، و إخراجها في طبيعته الرّوائية بما لها و ما عليها، أمّا الدّاخلي فيعني به لغة و روح اللّغة

في الوقت نفسه؛ لأنّ هذه الأخيرة هي التي وقفت سدّا منيعا أمام كثير من المستشرقين لولوج عوالم الشعر الداخليّة، زد على ذلك الوزن و القافية و الترّنات الموسيقية و الصّدق الفنّي للنّص الشعري ، كانت تلك ميكانيزمات و آليات - من وجهة نظرنا - ، تفضي إلى التّعامل مع القصيدة الشعرية من وجهة طبيعّية في الإطار الجغرافي و التّاريخي . أمّا أن نقصد إلى إقحام مناهج دخيلة لا تمتّ بصلّة إلى الدّراسة الموضوعيّة، يبقى الشعر عصيّاً ، يبدي كثيرا من التمرّد إزاءها، في انتظار التّعامل السّليم لإيجاد المفاتيح المناسبة لفتح منغلقاته، و ترويضه حبيا لإظهار مكنونه و كشف مجهوله . و تبقى المسألة التي نخلص إليها - فيما سبق - هل الشّفوية وحدها، كانت المصدر الأوحد لنقل الموروث الشعري؟، فالبحت فيها لا يظهر سهولة، فالمشقة قائمة، حيال مثل هذا الطّرح، إلّا أنّ استقصاء الإجابة و توخيها من كلّ ذلك، تبقى قبلة المجتهد . فعنصر الاستنباط كمبتدأ، يبقى من المقدّمات في مثل هذا المنهج، و لعلّ أولها، في مصطلح الجاهليّة، لا يعني به الأميّة الجائئة على صدور العرب في العصر هذا، فالجاهليّة كان يقصد بها الجهل بالدين و الغلظة التي كان عليها الأقوام و التعصّب الاجتماعي لتقاليد و أعراف القبيلة، و في ذلك، يقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلنّ أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهليّنا .

إنّ فالأميّة كنعت مستبعدة، و بعد هذا ، هل عرف العربي ضروب الكتابة و أدواتها؟، فباستقراء النّقوش الحجرية و استنطاقها، فهي تتكلّم عربيا، فالحفر في الحجر ضرب هو الآخر من ضروب الكتابة .

و النّشاط العلمي ببعض الحواضر، يقطع حاجز الشكّ في ممارسة فعل الكتابة، ثم أنّ هناك شكلا آخر لتمظهرات المكتوب، و هو ما وجد ميدانا له كتابة موثيقهم و عهودهم و رسائلهم و صكوكهم، فلا يعقل - والحال كذلك - ألا يحظى كثير الشعر أو قليله بهذه العناية، علما و أن للشعر من التّقدس و الهالة ما له، و لسان حال القبيلة هو شاعرها،

يزود عن حياضها يفاخر بها هو أمام القبائل الأخرى، يعدّد مناقبهم، يشحذ همهم، و يقوّي عزائمهم .بالمقابل يقف على مثالب و مطبّات أعدائهم، يحطّ من شأنهم و يثني من إرادتهم، فكيف بهم لا يقيّدون هذا الشّعْر؟! ، نجد في تاريخ الأدب الجاهلي كثيرا من الشّعراء الكتّاب، ففي قصّة عمرو بن كلثوم عندما أبلغ أبو عبيد النّعمان بن المنذر، فبحث عن كاتب يكتب إليه :

"ألا أبلغ النّعمان عني رسالة فمدحك حولي و ذمك قارح

متى تلقني في تغلب ابنة وائل و أشياعها ترقى إليك المسامع".

فالشاعر هنا أمام عجزه عن كتابة شعره ، راح يبحث عمّن يكتب له، فالكّتابه كفعل و ممارسة حاصلان لا محالة.

و نجد في تاريخ الأدب الجاهلي من الشّعراء الجاهليين -قلّوا أو كثروا - عرفوا نشاط الكتابة مباشرة، فمنهم لقيط بن يعمر الإيادي، الذي كان ضمن الكتّاب و المترجمين بقصور فارس، ففي القصيدة التي بعث بها إلى قومه نذيرا لهم على استعدادات الفرس لقتال العرب، دفع إليهم بقصيدته هذه مكتوبة، و منها :

"سلام في الصّحيفة من لقيط إلى من بالجزيرة من لإياد

ليختمها بـ :

هذا كتابي إليكم و النّذير لكم لمن رأى رأيهم منكم و من سمعا "

فقرائن الكتابة كقرينة الصّحيفة، و كتابي من القرائن الصّريحة لفعل الكتابة .فالكّتابه كممارسة، لم تكن بمنأى عن الحياة الثقافيّة الجاهلية.

نخلص مما سبق إلى أنّ الرواية الشّفوية، كوسيلة نقل الموروث الشعري لم تكن الوسيلة الوحيدة، بل وجدت إلى جانبها الرواية الكتابية، بالطبع لم تكن بدرجة شيوع الأولى، إلّا أنّ حضورها ثبت في أكثر من مناسبة ، و بأكثر من دليل،

فطغيان سماع، الروائي جعل يغطي كثيرا من مساحات الثاني، إلا أنه لا يمكن له بأي حال من الأحوال إقصاءه و إعدامه عنوة وظلما دونما مرجعية علمية!

إنّ الأسباب التي سردها بلاشير كمرجعية لكتابة الشعر الجاهلي، و التي ذكر منها، علم النسابة، و ما اعتمده من شعر جاهلي كمصدر للعودة إلى الجذور الأولى لمنابت القبيلة، ضف إلى ذلك بؤر التباين السياسي التي أذكت نيران الاختلاف، ممّا دفع إلى التوجّه إلى شعر الهجاء، جعل من هذين العاملين أحد الأسباب الرئيسة في تقييد الشعر، زيادة على أسباب أقلّ أهميّة من الأولى، ظهرت في الحاجة إلى معرفة التاريخ الاجتماعي خاصّة مع ما أحدثه الإسلام من ثورة تجلّت في الإيديولوجية القيمية، و إحداث التغيير الجذري في التراتب الاجتماعي، بقي في كلّ ذلك مجهود الخليفة معاوية بن أبي سفيان، يلقي بكثير من إشعاعه على حركيّة التدوين الشعري التي طبعت هذا العصر بطابعها خوفا من تبدّل اللسان العربي، و ما ينجرّ عنه من ضياع اللّغة العربية بفعل العنصر الدّخيل.

و بقي هذا التدوين في ظلّ هذه الحركيّة يراعي الجماليّة الشعريّة التي توجّهت بفعل التقييد إلى عنصر الانتقائيّة، إلا أنّ بلاشير يستدرك و يعزّز ما وصل إليه من تخريج ، من أنّ نشاط الكتابة قديم قدم تعامل الجاهلي مع النصّ الشعري، فالإجابة تاريخيا لا تحيل إلى الحسم، و الوقوف على تاريخ معلوم، و هو أمر عجز بلاشير نفسه عن تقديم نصوص حاجيّة تجعلنا نطمئن إلى ما ذهب إليه من رأي ، ففي نقده لرواية النّـعمان بن المنذر ملك الحيرة، و موضوع إخراج كنـوز الشعر المدفونة تحت القصر، غلب رأيا ذاتيا، لم يعتمد فيه على قرائن و أدلة تجعل من المتلقّي يستقرّ على سياق موضوعي يفضي به إلى اقتناع ، فكلّ ما توصل إليه، هو افتعال رواية قد لا يستسيغها المنطق، تتمثّل في أسبقية الكوفيّين بالشعر عن البصريين، ففي جميع الأحوال، فالشعر الجاهلي كمادّة حاضر سواء أ كان كوفي السّبق أو بصري

الهُوى والتوجّه، أمّا عن مقارنة التّدوين و التأخّر فيه بين النصّ القرآني المقدّس و الشعر الجاهلي . فنحن نرى أنّ عدم تدوين القرآن الكريم في حياة الرسول - صلى الله عليه و سلم - كان بأمر منه، إلّا أنّه لا يفهم من هذا أنّه كان منعدم الكتابة، فإنّ المقصود من ورائه كان التّجميع في كتاب واحد، و إلّا كيف تفسّر رواية جمع القرآن الكريم وقت خلافة عثمان بن عفّان - رضي الله عنه -، أمّا ما ذهب إليه بلاشير من أنّ الإِسفاف المضاميني، هو الذي حال دون التّدوين، فتلك قضية لا نجد لها تسويغاً؛ لأنّ الإِسفاف أمر نسبيّ، و لا يمكن سحبه على الشعر الجاهلي كلّه ثمّ أنّ هناك أمراً آخر، و هو ما نجده في الاستثناء الذي صنعه القرآن الكريم في سورة الشعراء "... : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ"، فالشعر الذي جاء يفصح مضمونه يغذّي الهجاء الذي يعمّق الهُوى و يمزق لحمة المجتمع العربي، علي خلاف ما يصبو إلى التّبصّر و الاحتكام لسلطان العقل، و إفشاء روح السّلام، تفادياً لكثير من الانكسارات و الانزلاقات التي هوت بالمجتمع الجاهلي إلى مكان سحيق، و لعلّ شعر زهير بن أبي سلمى خير نموذج لذلك . ففي كثير مناسبة استوقف الرّسول - صلى الله عليه و سلم - القيمه الاجتماعية للشعر الجاهلي، فمن ذلك بيت عنتره بن شدّاد التي يقول فيها:

و لقد أبيت على الطّوى و أظله
حتّى أنال به كريم المأكّل

و غير هذه المناسبة كثيرة، فإجمالاً الشعر، أشعار من الوجهة القيمية، وهي⁸. التي كانت الفيصل في منهجية التميّز منه . تبقى مسألة أخرى تحزّ في النّفس، وهو ما تعلّق بتاريخية تدوين الشعر الجاهلي، فالأحكام جاءت متضاربة، متفاوتة؛ فمنهم من يذهب بأقدميّتها، و منهم من يرى أنّها بدأت مع عصر التّدوين نهاية القرن الأوّل الهجري، و بداية الثاني، -كما أسلفنا-، و بالاستقراء التاريخي فالصلة هنا بينهما متداخلة، متعدّدة و لعلّنا نميل موضوعيّاً إلى أقدميّتها و مواكبتها لشفاهية الشعر الجاهلي، فما

دامت نصوص النفوس العربية، وفي كثير من المواطن — تربض في بطون الصّحاري العربية ، فالوصول إليها و استنطاقها، يبقى هو العامل الذي يضيء كثيرا من المساحات التي يسودها الظلام، كما ذهب إلى ذلك الدكتور، ناصر الدين الأسد، في مؤلفه :مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية ؛لأنّ غيابها غيّب كثيرا من الحقائق عن التّكوين و بداياته؛ و لعلّ المجهودات التي لن تنقطع في المضمّار هذا ستؤوّل إلى إضافة حلقات توصل خيط البحث متكاملا، و عندها تبدو الصّورة منسجمة والرّؤية واضحة؛ تزيل كثيرا من الحيرة و التّشويش إزاء التّقييدية العربية؛ لأنّنا نرى أنّ كثيرا من الأحكام أشارت إلى قدم الكتابة العربية ،جاء عن ابن هشام" :يشير إلى أنّ سويد بن الصّمامت كان يحمل صحيفة فيها كلمة حكمة لقمان، و أنّه ذهب إلى رسول الله - صلّى الله عليه و سلّم -فقرأها عليه، فقال له الرّسول :إنّ هذا الكلام حسن، و الذي معي أفضل من هذا - قرآن أنزله الله تعالى عليّ، هو نور و هدى . "و يذكر ابن النّديم ،أنّه كان في خزانة كتب الخليفة العبّاسي المأمون، كتاب بخطّ عبد المطّلب بن هشام توفّي قبل البعثة المحمديّة بحوالي خمسة و أربعين عاما، و أنّ هذا الكتاب كان في جلد آدم، و قد دوّن فيه" :حقّ عبد المطّلب بن هاشم من أهل مكّة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزن صنعاءعليه ألف درهم فضّة كيلا بالحديده، و متى دعاه بها أجابه .شهد لله و الملكان ."

إنّ الأحكام التي صدرت في حقّ الكتابة، جاءت مبتسرة ذاتية في غالبيتها تأخذ بأسباب الإحاطة و الشموليّة التي ترشّح صاحبها مكانة تجعل منه مضطّعا بأدوات بحثه .

4. خاتمة

إنّ الرواية الشفوية عند بلاشير، لم تأخذ الحيّز الذي كان يجب أن تأخذه، هذا من حيث السّعة، كونها جاءت موزّعة على فضاء محدود مقارنة بغيره من المستشرقين الذين سبقوه إلى هذه الظاهرة الدّراسيّة، شأن؛ نودكي أو ألسوارد و بروكلمان؛ لأنّ دراساتهم جاءت مستفيضة، نستطيع أن نقول عنها، أنّها سبرت أغوار الموضوع من جانبها التّاريخاني أو القيمي، محتفظة لنفسها في ذلك بخصوصيّة الطّرح. أمّا فيما تعلق ببلاشير، قلت: أنّ تناوله جاء مقتضبا، فمع اقتضابيته شدّني إليه طرحه الوسطي، فمن حيث ما أصدر من أحكام عن الرواية الشفوية، فهو لم ينكرها على الشّعْر الجاهلي، كمصدر من المصادر التي حوت التّراث الشّعري قبل ظهور الإسلام ردها من الزّمن، إلّا أنّها لم تسلم من النّقد الذي سلّطه بلاشير عليها؛ أي على الرواية السّماعية، لما رآه من خطر محدق لها، مثله مثل الرّواة الذين امتهنوا فعل رواية الشّعْر على امتداد خمسين سنة أو يزيد، و تجلّت خطورتهم في انتماء بعضهم إلى أسر عربيّة عريقة و تقمّص أخلاقيّاتها و أدبيّاتها و عاداتها و اجتماعيّاتها. فحصل لهم ذلك التّواصل الاجتماعي تشدّ عضده اللّحمة القبليّة و التي قد تسع خارج حدودها الضيّقة لتلامس جغرافيا قبائل عربيّة أخرى. مما أفضى بهم إلى امتلاك خاصيّة اللّغة حدّ الإتيقان، و هو ما أجج أوار نيران الشّفوية بصفة شبه شاملة في الأمصار التي عرفوها في حلّهم و ترحالهم.

و المظنون أنّ بلاشير و غيره ممّن قاسمه هذا الطّرح، إنّما انطلقوا من باب التّخمين ليس إلّا!، لتعليل نحن نراه مقاربة للإشكاليّة التي انطلقوا منها في إبعاد الكتابة كفعل متحضّر عن مجتمع أو رأوا أنّ الشّفوية بحكم البداوة تأصّلت فيه، و هي نظرة لا تقوى أمام القرائن الماديّة و التّاريخيّة التي سبقت في هذا الصّدّد في أكثر من مناسبة. و من جهة أخرى راحوا يفتشون عن حججهم، فهي إلى الوهم أقرب منها إلى الواقع في التّشكيك في صحّة الشّعْر الجاهلي؛ لأنّها كلّما اعتمدت على نصوص و روايات مقيدة، أبعد

عن نفسه هذه التهمة، و دفعها بقوة ليظهر في موقف قوة ترشحه لإثبات نفسه و البقاء شامخا أمام وهن الشكّ الذي أحرق به . تلك مسوغات رأيها نحن كفيلة بتنفيذ مزاعم بلاشير و من ذهب مذهبه .

لما تقدم جعل بلاشير يمهد للانقضاض بمعول هدم لديك أركان الرواية السماعية في تقاطعها مع المكتوبة؛ لأنّ مجهودات بعض المدوّنين شابها المزج بين المرويّ الشفوي و هوى ناقله، فأضحى الأمر مدعاة إلى الشكّ فيه كلّ، لكونه لم تصاحبه حركيّة نقدية تصفي زائفه من حقيقه و تداخل الأصل بالدّخيل في متن الرواية .

5. الهوامش :

- 1- د/رجيس بلاشير، تاريخ الأدب العربي ج 1 ، ت ، إبراهيم الكيلاني ،الدار التونسية للنشر،د/ط 1986، ص:110 .
 - 2- أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى (1427هـ-2006م).
 - 3- بسام قصوس "المدخل إلى مناهج النقد المعاصر" دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر الإسكندرية ط1 سنة 2006م.
 - 4- عادل حسن غنيم د.جمال محمود في منهج البحث التاريخي دار المعرفة الجامعية، ط3 سنة، 2007م.
 - 5- مراد وناجي ميت صريح أبو قاسم سعد الله في الفكر والثقافة فن اللغة والتاريخ الحبر ط1 الجزائر 2008م.
 - 6- محمد هائل حميدات، قضايا النقد الأدبي الحديث، دار الأمل والنشر والتوزيع الأردن ط1 1991م.
 - 7- محمد غنيمي هلال، "النقد الأدبي الحديث" ، العودة دار الثقافة، ط1973م.
 - 8- 103 شرح ديوان عنتر بن شداد ، تعليق عباس إبراهيم ،د/ ط ، د/ت ، د/د ، ص، 105 .
- *لمزيد من التوسع يفضل العودة إلى ناصر الدين الأسد مصادر، الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف ،كورنيش النيل، القاهرة، مصر.

6. المراجع :

1. 103 شرح ديوان عنتر بن شداد ، تعليق عباس إبراهيم ، د/ ط ، د/ ت ، د/ د.
*لمزيد من التوسع يفضل العودة إلى ناصر الدين الأسد مصادر، الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف ،كورنيش النيل، القاهرة، مصر.
2. أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى (1427هـ-2006م).
3. بسام قصوس "المدخل إلى مناهج النقد المعاصر" دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر الإسكندرية ط1 سنة 2006م.
4. د/رجيس بلاشير، تاريخ الأدب العربي ج1 ، ت ، إبراهيم الكيلاني ،الدار التونسية للنشر، د/ط 1986،
5. عادل حسن غنيم د.جمال محمود في منهج البحث التاريخي دار المعرفة الجامعية، ط3 سنة، 2007م.
6. محمد غنيمي هلال، "النقد الأدبي الحديث" ، العودة دار الثقافة، ط1973م.
7. محمد هائل حميدات، قضايا النقد الأدبي الحديث، دار الأمل والنشر والتوزيع الأردن ط1 1991م.
8. مراد وناجي ميت صريح أبو قاسم سعد الله في الفكر والثقافة فن اللغة والتاريخ الحبر ط1 الجزائر 2008م.